القوة فى نظر الأسلام

للاستاذ كامل السوافيرى

طوى الزمن من حياة الرسول بمكة بعد الرسالة ثلاثة عشر عاما كانت صراعا دائما بين الحق والباطل وبين الاسلام والوثنية وبين محمد بظاهره القرآن وقريش تؤيدها الفرسان

يبقى سوى رابط اللغة الذى يوحد بين شطرى العالم الإسلامى التوحيد النهائى الأخير

وعلى أية حال ، فإن إنشاء معهد لتعليم اللغة العربية لجماعة من المسلمين فى باكستان أو فى أندونسيا لن يكون أقل ثمرة من إنشاء معهد يعلم اللغة لبضعة عشر نفرا من اليهود أو من المستعمرين الإنجليز !

إننى أهيب بوزارة المعارف المصرية أن تمنح هذه المسألة من العناية ما تستحقه ؛ وإن كنت أحسب أنها مسألة تستحق عناية الدولة كلها . عناية جهازها الدبلوماسى فى الخارجية ، وجهازها العلمى فى وزارة المعارف ، وجهازها المالى فى وزارة المالية . . كما أن أجهزتها الاقتصادية فى وزارة التجارة ووزارة التموين ووزارة الاقتصاد الوطنى ستجد حقولا خصبة وحقولا ضخمة لو شاءت أن تؤدى عملا ذا قيمة غير محدودة ، عملا ذا أثر عميق فى موقف العالم الدولى كله . وفى موقف قضايا الحرية فى كل مكان

إن قيام الكتلة الإسلامية على أصولها الصحيحة هو الضمانة الأخيرة الباقية للعالم اليوم ، لوقايته من حرب ثالثة مدمرة . أو هو على الأقل الضمانة الوثيقة لتحرير شعوب العالم الإسلامى من الاستعمار الغاشم الظالم

وهكذا تدرك وزارة المعارف أنها حين تنهض بهذه المهمة فإنها لا تؤدى عملا ثقافيا مجردا ، إنما هى كذلك تؤدى واجبا ضخما فى عالم السياسة القومية والدولية ، وفى عالم الحرية ، وفى عالم التاريخ ...

سيد قطب

ونزلت الآيات القرآنية الكريمة تخاطب من القوم عقولهم وتزجى الحجج ، وتسوق الأدلة فيصمون آذانهم عن سماع الحق ويغلقون قلوبهم من دونه . ولما أعجزهم المنطق ، وغلبهم لاذوا إلى أسلحة البطش والعدوان يحاربون بها محمدا ويذيقونه منها ألوانا مختلفة . ولا يكتفون بحربه وحده بل يصبون غضبهم على المستضعفين من الموالى المسلمين ، ليردوهم عن الإسلام . ويصبر الرسول على أذى قومه ، ويتجلد المسلمون فى سبيل دينهم حتى يأذن الله للفئة أن تنقشع ، وللإسلام أن ينتشر ، ولرسوله أن ينجو من المؤامرة فيأذن له بالهجرة إلى يثرب

وتفيأ المسلمون ظلال الأمن فى يثرب فأمنوا من بعد خوف ، واشتدوا من بعد ضعف ، وكثروا من بعد قلة ، وسكنوا من بعد اضطراب . وأخذ النور الإلهى يسرى فى القلوب فيجذبها إليه ، ويستهوى النفوس فيدفعها نحوه ، واخذت دعائم الإسلام تتوطد وأركانه تستقر ، وشوكته تقوى ، والمسلمون يزيد عددهم كل يوم يصبحون آلافا مؤلفة يقودهم محمد فيدخلون مكة عام الفتح ، ويطهرون كعبة الله من ربقة الوثنية ، ويعلن الرسول فى تواضع عفوه عمن سفهوه الأذى ، وجرعوه العذاب ؛ ويثوب الضالون إلى الرشد ويدخل الناس فى دين الله أفواجا وتنضوى قريش تحت راية الإسلام

ما أشد حاجة كل حق فى هذه الدنيا إلى قوة تثبت أركانه وترفع سلطانه إذا عارضه المعارضون وتأباه المكابرون ؟

لم يكن الإسلام قبل الهجرة باطلا فأصبح بعدها حقا ، ولم يكن محمد كاذبا حين أنذر عشيرته برسالته فى مكة فغدا صادقا فى يثرب ، وما عهدت قريش عليه كذبا ولا خيانة حتى قبل أن يصطفيه ربه لرسالته فهو الموسوم فى طفولته بالصادق الأمين الذى حفظه الله من دنس الجاهلية ، وطهره من أوزارها . ولكن الإسلام فى مكة كان حقا ضعيفا لا يستند إلى قوة تحميه ، ومحافل تدافع عنه فأصبح فى المدينة مؤيدا بالأسنة والرماح . دشتان بين الحق يؤيده الفكر والبرهان ، والحق يظاهره السيف والسنان

من أجل هذا كان للقوة فى نظر الإسلام الأهمية البالغة ، والمكانة السامية . ومن أجل هذا فرض الله على المسلمين الجهاد إعلاء لكلمته ، وتنفيذا لأحكامه وكتب عليهم القتال وهو كره لهم

(يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون .) وأمرهم أن يكونوا أقوياء بإيمانهم وعقائدهم ، وأجسامهم وجوارحهم ، اشداء على الأعداء رحماء بينهم . غلاظا على الخصوم لينين مع إخوانهم (محمد والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) (وليجدوا فيكم غلظة)

وللقوة فى كل زمان مظهر يتفق معه ، ويتلاءم مع تطوره؛ فهى فى فجر الإسلام رمح وسنان ، وأبطال وهو الشجاعة والبطولة يرخصون نفوسهم فى سبيل الله ، ويجاهدون لاعلاء كلمته ؛ ولكنها اليوم وفى القرن العشرين بندقية ومدفع ودبابات ومصفحات ، وطائرات وقاذفات . وغواصات وكاسحات وفرق مدربة فى البر والبحر والهواء .

وقد طالب الإسلام أتباعه بأن يعتمدوا على أنفسهم بعد الله . وبعد تنفيذ دستوره والعمل بأحكامه ، وألا يأمنوا أعداءهم بل يحذروهم. وحتم الإسلام على اتباعه أن يكونوا دائما على استعداد لمنازلة الأعداء وأن يعدوا لهم كل ما يستطيعون من وسائل القوة ليرهبوهم (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) والاستطاعة أيضا تتطور بتطور الزمن وتسير مع روح العصر الذى يعيش فيه المسلمون اليوم

دعا الإسلام المسلمين للقوة ، ونشأهم على العزة ، ووعدهم بأن يستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وحارب الضعف والوهن (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) وقاوم الجمود الجسمى وحطم الإسار العقلى ليعلو سلطانه، وتتدبر تعاليمه وليتم الله نوره ولو كره الكافرون

ولم يدع الإسلام المسلمين للقوة ليتخذوا منها ذريعة للبطش بالضعفاء ، أو مهاجمة الشيوخ والأطفال والنساء . أو الاعتداء على المسالمين والأبرياء أو الإفساد فى الأرض والتمرد على النظام بل ليفرضوا سلطان الحق على النفوس المتمردة ، والقلوب المتبلدة وقد علم الله — جل شأنه — أن فى عباده سباعا ضارية تلبس مسوح الرهبان، ووحوشا مفترسة على شكل الإنسان، ولا سبيل إلى إذعانها للحق ، وردعها للنظام إلا بلكمة فى الصدر ، أو ضربة فى الرأس ، أو طعنة بالسيف. وبعد فلا إخالنى بحاجة للقول بأن من أهم أسباب تأخر المسلمين اليوم ضعفهم. والضعيف دائما فريسة سهلة للقوى فى دنيا تسودها شريعة الغاب، وعالم يدين بأن الحق والعدل والضمير من أساطير الأولين. وضعف المسلمين اليوم معنوى ومادى ؛ فالأول واضح فى انقسام الرؤساء واختلاف الأحزاب ، وتخاذل الحكام ، وتفرق الكلمة؛ والثانى ظاهر فى احتياج الجيوش الإسلامية للذخيرة والعتاد ، وحاجة الأقطار الإسلامية والعربية لإنشاء مصانع الأسلحة المختلفة . والاتحاد قوة، وقد دعا الإسلام إليه: واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا؛ والسلاح قوة وقد أمر الله به : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . وقد رأينا باطلا يعلو لأنه مؤيد بالجيوش والأساطيل، وحقا ينهار لأنه ليس وراءه جنود ولا أساطيل على مرأى ومسمع من الصفوة المختارة من دول العالم المتمدن التى اجتمعت والتقت فيما يسمونه بمنظمة الأمم المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين

ففرض علينا نحن المسلمين التدريب العسكرى ، والتربية الحربية التى تجعل من كل مسلم منا جنديا يعرف مكانه إذا هتف به الدين ، ودعاه الوطن

وحرب على الإسلام من يعارض إنشاء مصانع الذخيرة والأسلحة فى أى قطر إسلامى أو بلد عربى . وخائن لوطنه من يعتمد فى حماية الوطن على الأجنبى الغاصب الجاثم فوق الصدور استنادا إلى معاهدات أثيمة لا تساوى المداد الذى كتبت به . لقد بلغ من ضعفنا أن أصبحت الدول الاستعمارية تتصرف فى شؤوننا ، وتقضى فى أمورنا بما تريد دون أن تعنى باستطلاع آرائنا وكأن الشاعر العربى كان يعنينا حين قال

ويقضى الأمر حين تغيب تيم
ولا يستأذنون وهم شهود

فعلينا — أقطار العروبة والإسلام — أن نبنى أنفسنا من جديد ، وأن نستلهم روح العصر الذى نعيش فيه، وأن نغير من نظم التربية والتعليم لنجعلها أكثر ملاءمة لتطور العلم . وأن ننفض عنا غبار الخمول . ونسد نقصنا ونستكمل أسباب قوتنا